جريمة المتاعب العائلية

ربما كانت كوارث الحروب والأوبئة هى التى جعلتنا نستهين بكوارث السيارات . فنحن الآن نرى أن الحروب شر ، يهون إلى جواره أى شر آخر ، ولو كان هذا الشر الآخر هو حوادث السيارات ، مع أن الذين يموتون تحت عجلات السيارات أكثر من ضحايا الحروب . ففى أمريكا — مثلا — مات سنة ١٩٥١ حوالى مليون شخص ، وفى سنة ١٨٩٩ مات شخصان فقط ، وفى إنجلترا سنة ١٨٩٦ مات شخص واحد ، وأول حادث قطار فى العالم كله كان سنة ١٨٣٠ عندما داس القطار رجلا كان يعمل نقيباً لعمال الشحن . وعلى أثر حادث القطار هذا أقيمت أرصفة المحطات ، ولكن حوادث السيارات لم تؤد إلى مثل هذا الإصلاح السريع . فما تزال الشوارع التى تنطلق فيها السيارات ضيقة مخنوقة ، لأنها كانت خاصة بعربات الكارو والخيول !

وبما أن الإنسان حيوان اجتماعى ، فالسائق أيضاً حيوان اجتماعى ، والمشاة حيوانات اجتماعية ، وإصرارى على استخدام كلمة « الحيوان » هنا : أنها صفة يطلقها السائقون على المشاة ، ويرد بها المشاة على السائقين !

ولاشك أن المتاعب فى البيت وفى العمل لها أثرها على السائق وعلى الماشى أيضاً . فالمتزوجون أقل حوادث من العزاب . والمطلقون أكثر حوادث من الجميع ، والمرأة أقل حوادث من الرجل . وأكثر

السائقين تعباً هم سائقو التاكسى واللوريات . فالسيارة بالنسبة لهم ليست مكاناً للنزهة . وإنما هى دكان متحرك . ورشة . هى « الشغل » الذى يقصده عندما يجيب عن سؤال : إلى أين ؟ فيقول إلى الشغل .. ولكن من المؤكد أن الحالة النفسية والاجتماعية والجسمية والصحية للسائق أو الماشى هى العامل الرئيسى فى هذا الحادث الأليم .. ولابد أن السائق الذى رفع رجله عن الفرامل بدلا من أن يضغط عليها ، قد تعب فى البيت من ضغط أعصابه .. تعب من ضغطه على فرامل أعصابه .. وفجأة رفع رجله عن الفرامل فى البيت وثار وشتم وطفش .. وعندما ركب السيارة رفع — لا شعورياً — رجله عن الفرامل .. تماماً كما فعل فى البيت .. وكل الناس الذين فى الشارع قد جاءوا من بيت أو من بيوت !

ومن المؤكد أن المتاعب العائلية تنعكس فى « الشغل » فيموت بسببها أناس فى الطريق .. فالسيارة مسدس فى يد السائق ولكن الرصاص قد تمت تعبئته فى مكان آخر !

الرجل
ليس أباً بالغريزة

المرأة أم بالغريزة ، والرجل أب بالممارسة !

فالطفلة وهى صغيرة تلاعب عروستها وتتحدث إليها ، وتبكى من أجلها أيضاً ، وتنقل عدوى مشاكلها إلى العروسة : فإذا كانت الطفلة « زعلانة » من أمها فالعروسة « زعلانة » أيضاً . وعن طريق هذا « الحوار » بين الطفلة والعروسة يمكن معرفة مشاكل ومتاعب الطفلة نفسها .. والطفلة أم قبل أن تعرف معنى الطفولة أو الأمومة ، وقبل أن تعرف ما هو الفرق بين الذكر والأنثى ، ولا من أين يجىء الأطفال ..

أما الرجل فليس أبا بالغريزة . فهو عندما يكون طفلا يلعب بالحصان والمدفع والطائرة ويبنى البيوت والكبارى . والمجتمع يدفعه إلى أن يكون مختلفاً عن الطفلة ؛ لأنه مختلف . ويجب أن يكون مختلفاً عنها . ولو اهتم طفل « بعروسه » لانزعج الأب أو الأم ، وتستروا فوراً على هذه الجريمة — وهذا يحدث كثيراً عندما يكون الطفل وحيداً بين عدد من الأخوات البنات ..

وعندما تكبر المرأة تعلم أن الأبوة ليست غريزة عند الرجل ، ولذلك تحاول دائماً وفى استماتة — أن تربط الرجل بالبيت ، وبكل ماله علاقة بالبيت ، وأن يبقى فى البيت أكبر وقت ممكن ، وأن تعمق لديه الشعور بالغلط والذنب والألم والخيانة إذا هو ابتعد عن البيت .. أى إذا ابتعد عن الزوجية وعن الشعور بأنه زوج ، وبأنه سوف يكون أباً .

فإذا أنجبت زوجته طفلا ، وهنا فقط يهتز كل وجود المرأة :

جسمها ونفسها وتاريخها من أجل الإبقاء على هذا الطفل ، وتوفير الراحة والسعادة له فى رعاية هذا « الأب» أى فى رعاية الزوج الذى لم « يشعر » بعد بأنه أب . فكل امرأة تريد أن تكون أمًّا ، وأن يكون ابنها من رجل تحبه . فهى تريد أن تتكرر صورة الرجل الذى تحبه فى أطفالها منه . أما الرجل فهو يحلم عادة بأن يكون أباً ؛ فإذا كان أباً فهو لا يريد أن يكون أطفاله صورة مكررة للزوجة التى أحبها .

وأقسى مهمة للزوجة هى أن تجعل زوجها يشعر بأنه أب . ولذلك ومنذ اللحظة الأولى ؛ تربط بين المولود وبين والده . تجد صفات مشتركة بين الاثنين : العينان والأظافر والأنف وحركة الفم وحركة الرجلين .. وكل يوم تتجدد هذه الصفات ، وكل يوم يكتشف الرجل أنه موجود فى هذا الطفل الصغير .. وأنه شخصيًا هذا الصغير ، ويتعلق به ويرتبط به .. وبالتدريج يتحول الزوج إلى أب . وإلى أب يحب طفله بعنف ؛ لأنه يحب نفسه فى هذا الطفل .. يحب طفولته فى هذا الطفل . ويتمنى أن يكون هذا الطفل أسعد حالا منه .. وهنا فقط تطمئن الأم على أن زوجها قد أصبح أباً .. بالممارسة ، ثم أبا بالعاطفة .. وتصبح العاطفة قوية عند الأب حتى يقتنع أنه أب بالغريزة أيضاً !

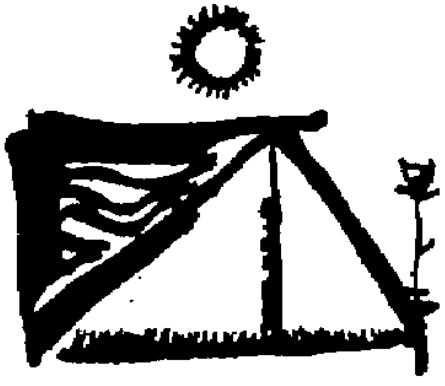

حتى الحق
يحتاج إلى دليل

لا يكفى أن تكون على حق لتكسب حقك . وإنما أنت محتاج إلى أن تعرف حقك وتفهمه . ثم تشرحه وتقنع به الناس ، ثم تدافع عنه إذا أخذته . لأنه من الممكن أن يضيع منك .. وأقوى نموذج لهذا هو أن بلادنا لنا . هذا حق . ولكن كم سنة من عمرنا أمضيناها نقول هذه العبارة ونشرحها ونقنع بها ونثور من أجلها حتى خرج الإنجليز من بلادنا ، وأصبحت أرضنا لنا ؟

وفى حياتنا العادية نحتاج أيضاً إلى أن ندافع عن حقوقنا . ومهنة المحاماة دخلت التاريخ لهذا السبب : أى لشرح حقوق الناس والدفاع عنها .

ولكن ما الذى يملكه إنسان من أدلة إذا قال إنه رأى حصاناً له ست أرجل ؛ ثم لم ير الناس هذا الحصان ؟ ما الذى يملكه إنسان من أدلة إذا قال إنه رأى بحراً نصفه نار ونصفه الآخر ثلج ، ثم لم يملك أن يأتى بصورة واحدة لهذا البحر ؟

وقد وقع كولومبوس فى هذا المأزق ، فعندما رجع إلى إسبانيا بعد أن اكتشف أمريكا ملأ سفينة بعينات من كل شىء رآه : من الناس والحيوانات والنباتات والمعادن .

ولكن إيزابلا ملكة إسبانيا سألته : أنت تقول إن البلاد التى اكتشفتها تربتها حمراء ... فهل هذا معقول ؟

طبعاً معقول جداً ، ولكن كولومبوس نسى أن يأتى بحفنة تراب من أمريكا . مع أنه لو فتح أحد صناديقه وأخرج منها حذاءه لوجد

بعض التراب عالقاً به . ولكنه لم يستطع أن يرد على الملكة بكلمة . وخرج حزيناً كأنه لم يكتشف العالم الجديد . وكأنه لم يأت بألف دليل على صحة ما رآه !

ولابد أن كولمبوس عندما رجع إلى أمريكا مرة أخرى قد شحن سفنه تراباً يملأ به عين الملكة !

ومنذ مائة سنة أقيمت ندوة فى لندن من علماء الجغرافيا الساخطين ؛ وسبب سخطهم أن الرحالة « سبيك » أعلن أنه اكتشف منابع نهر النيل . وأن منابع النيل هى بحيرة كبيرة . وكان هذا الرأى صدمة للنظرية الشائعة فى ذلك الوقت بأن النيل ينبع من الجبال مباشرة ؛ وأنه يمر بمستنقعات واسعة جداً قبل أن يعتدل فى مجراه متجهاً إلى مصر .

وتزعم علماء الجغرافيا الرحالة رينشارد برتون ؛ وذهب العلماء وانتظروا ، ولم يأت الرحالة سبيك . نصف ساعة . ساعة .. ودخل رجل مسرعاً ليهمس فى أذن زعيم الساخطين : لقد انتحر سبيك !

انتحر لأنه لا يملك أى دليل مادى على وجود بحيرة فكتوريا . لا صور ولا خرائط .. فلم تكن الطائرات قد ظهرت ، ولم تكن الكاميرات تتدلى منها . إنه رأى البحيرة فقط . وكولمبوس رأى الأرض الحمراء . وكلاهما رأى الحقيقة ، وكلاهما صاحب حق .. ولكن أين الدليل ؟

لا دليل . ولكن الأجيال التالية أكدت أنهما عرفا الحقيقة .. وأن الموت حقيقة أيضاً .. ولكن الموت هو الحقيقة التى تحرم الإنسان من أن يفرح بالحقيقة التى اكتشفها ولم يعرفها أحد من الناس !

الهدف والوسيلة

الطريق إلى الهدف طويل .. ويجب أن يكون طويلا .. وهو صعب ، ويجب أن نصبر عليه .. وإلا فلن ننجح فى أى علم أو فن !

هل تعرف ما الذى تتعلمه راقصة الباليه قبل أن تحرك ساقيها ؟ ليس الرقص ولانط الحبل .. ولا الوقوف على أطراف أصابعها ، ولا أن تدور حول نفسها كأبواب الفنادق .. وإنما أول شىء هو أن تتعلم كيف تتنفس .. كيف تسحب الهواء وكيف تحتفظ به .. ثم كيف تزفره بحساب !

هل تعرف ما الذى يتعلمه الطالب ليكون مطرباً .. ليس الغناء، ولاحفظ الأدوار والطقاطيق.. وإنما أول شىء يتعلمه هو كيف يطلق أصواتاً بلا حروف .. كيف ينطق كلمات بلا معنى .. وبعد ذلك يتعلم كيف يسمع قبل أن يسمعه الناس !

ولكى يتعلم الإنسان الكتابة يجب ألا يكتب أولا .. ولكن أن يقرأ أولا .. وأن يقرأ ثانياً ، وأن يستمتع بما قرأ ثالثاً ، وأن يكتب بعد ذلك . فلكى تكتب يجب أن تقرأ ما يكتبه الآخرون .. ولكى ترسم يجب أن تتفرج على ما يرسمه الآخرون .. فالإنسان لا يعيش على تجاربه وحده ، وإنما يعيش على تجارب الآخرين .. وبعد ذلك على تجاربه .. والشمس لا تعلمنا أبداً كيف نرسمها : ولكن لوحات الفنانين هى التى تعلمنا كيف نرسم الشمس .. والأهرامات لا تعلمنا كيف نرسمها ، ولكن لوحات الفنانين هى التى تعلمنا كيف نمسك الفرشاة وكيف

نخلط الألوان وكيف نراعى النسب .. ومن هذه اللوحات نتعلم معانى الجمال وأصول الفن !

ولكى يكون الإنسان فصيحاً بليغاً لا يبدأ يتكلم ليلا ونهاراً لنفسه ولغيره.. وإنما يبدأ يتعلم كيف يستمع للآخرين .. ويدرك بحرص وانتباه كيف ينطقون ، وكيف يعبرون عن أنفسهم .. فالمتكلم الفصيح هو الذى استمع إلى الآخرين طويلا ، ثم تكلم بعد ذلك !

فكل شىء له أصول .. وهذه الأصول . مثل البذور بعيدة وعميقة .. لأنها بعيدة ، فالطريق الذى يبدأ منه طويل وشاق.. وكثيرون تعبوا فى أوائل الطريق . وفى منتصف الطريق . . ولكن الإنسانية تدين بتقدمها لكل الذين بدءوا بالتنفس .. بدءوا من البداية وصبروا حتى النهاية !

الواقعية الخيالية

هناك نظرية جديدة اسمها « الواقعية الخيالية » ومن أهم أفكارها :

أنه لا يوجد أى دليل علمى على أن الأرض هى الكوكب الوحيد المسكون بالكائنات العاقلة .

ولا يوجد أى دليل على أن الحضارة الإنسانية التى بدأت فى أواسط أفريقيا من نصف مليون سنة ، هى الحضارة الوحيدة التى ظهرت على سطح الأرض ، وربما كانت هناك حضارات أخرى ظهرت وانقرضت، أنهت الحياة وبدأت بشكل آخر .

ولايوجد أى دليل علمى مقنع على أن الإنسان أصله قرد . ولا يوجد أى دليل علمى يمنع القرد أن يصبح إنسانا ، ولا أن يصبح الإنسان قرداً بعد ذلك !

ولا يوجد أى دليل علمى واضح عن الكيفية التى بنى بها الفراعنة أهرام الجيزة.. ولا دليل . والأقرب إلى العقل— الآن — هو أن كائنات أخرى هبطت من الأفلاك المسكونة وساعدت الفراعنة على بناء الهرم خصوصاً أن هذا الهرم يعتمد على نظريات هندسية وفلكية ناضجة ظهرت فجأة وليست لها أية مقدمات فى الحضارة المصرية أو فى الحضارات الأخرى !

ولا يوجد أى تفسير علمى واضح لمعنى النقوش الموجودة فى كهوف الصحراء الغربية فى الجزائر وفى مالى وموريتانيا لرجال عمالقة وإلى جوارهم عدد من الأقزام الزنوج . وهؤلاء العمالقة أناس

من كواكب أخرى . نزلوا إلى الأرض ؛ فعبدهم سكان الأرض ، ثم سجلوا ذلك على الحجر !

والعلم الحديث لا يستبعد الآن أن يكون البحر الميت ، وغيره من البحيرات الصغيرة المقفلة أماكن هبطت فيها سفن من الفضاء الخارجى .. وتركت هذه الفجوات دليلا على ذلك !

وفى أوربا الآن عدد كبير من المفكرين والأدباء والفنانين يؤمنون إيماناً مطلقاً بأنه من الممكن أن تكون أرواحنا هذه قد انتقلت من أجسام أخرى ماتت . . أجسام حيوانات أو أجسام بشر أو أية كائنات أخرى عاقلة أو نصف عاقلة .

إن العلم الحديث يؤكد أن كل ما هو مادى هو شىء ثانوى ، وأن ما هو « روحى » أو معنوى هو الحقيقى. فكل مادة يمكن تحويلها فى ثانية إلى طاقة . . إلى ضوء . . إلى شىء غير مادى . ولا يستطيع إلا الله وحده أن يحول الطاقة إلى مادة . . أن يحول قطعة الورق التى احترقت إلى ما كانت عليه قبل الاحتراق .. والله أعلم !

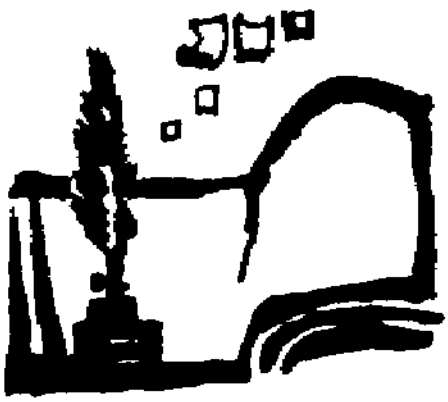

الغرور أقوى

الغرور : نقطة ضعف أى رجل . ولا يوجد رجل واحد أقوى من الغرور .. ومن الممكن أن يضيق الرجل بالذين ينافقونه ، ولكنه لا يكرههم .. ومن الممكن أن يتظاهر الرجل بأنه يحب الصراحة ، ولكنه لا يمكن أن يحب الذين يصارحونه بحقيقته . ويصارحونه بوزنه وحجمه وأبعاده الحقيقية .. ولا رجل !

هل تتصور أن عالماً عظيماً مثل فرويد يقع فى غرام واحدة .. إنها واحدة قالت له بصراحة : أنت غبى !

وهذه الفتاة الجميلة اسمها سالومى .. وقد دوخت أشهر الرجال والفلاسفة فى أوربا كلها .. واستطاعت أن تبقى بعيداً عن أيدى كل عباقرة أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين . أحبها الفيلسوف نيتشة برغم كراهيته لليهود .. وأحبها الشاعر ريلكة برغم كراهيته للشعر الأسود وقد أحب بعدها الفتاة المصرية الجميلة نعمت علوى ، ولكنه لم ينس سالومى .

وقد اعترضت هذه الفتاة الجميلة المثقفة حياة عالم النفس الكبير فرويد .. وفرويد كان أعظم شخصية ظهرت فى أوائل القرن العشرين . فهو الذى هز أركان النفس الإنسانية .. وأعاد الإنسان إلى أصله الحيوانى . فهو الذى رأى الطفل فى كل رجل .. ورأى الوحوش فى كل طفل . . ورأى الكهف والظلام فى كل بيت . . وهو الذى رأى الحرام فى رضاعة الطفل .. ورأى الجنس فى وضع السيجارة بين الشفتين ، وهو الذى عرف معنى كل فكرة نعلنها وكل فكرة

تخفيها .. وهو الذى وضع قاموساً لأحلام الإنسان .. وهو الذى اكتشف أن الأحلام لها لغة .. وأن هذه اللغة لها كلمات وأن هذه الكلمات شكل صور .. تماماً كاللغة الفرعونية القديمة . فالصقر عند الفراعنة كلمة .. والثعبان والقرد والزهرة والنحلة كل هذه كلمات .. ورأى فرويد أن الشجرة والثعبان والمظلة والسكين كلها ذات دلالات جنسية .. لقد استطاع فرويد أن يعرف كل شاردة وواردة فى أعماق الإنسان . وكل أعماق الإنسان مظلمة ، والحب ليس إلا صورة مهذبة للجنس .. والجنس ليس إلا نداء الحياة .. إلا نداء الحيوان فى كل إنسان .. وكل إنسان حيوان .. حيوان حتى فرويد ....

وظلت العلاقات بين فرويد وهذه الفتاة ربع قرن . هو يكتب وهى ترد عليه .. وتناقشه وتصف أفكاره بأنها سخيفة ، وتصف نظرياته بأنها كلام فارغ . وأحبها فرويد ، وحاول أن يقول لها إن حبه عفيف . ونسى أنه لا يرى أى حب عفيف ، وأن كل حب هو جنس ، وأن كل جنس هو حب .

ومنذ أشهر صدر كتاب يضم رسائل فرويد إلى سالومى . إنها رسائل عجيبة !

وهزت سالومى كبرياءه ، وزعزعت غروره .

ولكنها قد تعطفت عليه بهذه العبارة : « وبرغم كل شىء أنت صاحب أجمل شفتين فى الدنيا » ... وحلق فرويد العظيم شاربه ، لتبدو شفتاه أكثر جمالا .. والذى يرى شفتى فرويد لا يجد فيهما أى جمال .. ولكن الرجل يصدق أى مديح يصدر عن امرأة جميلة .. أو عن أية امرأة .. أو عن أى رجل !

لست نبيًّا .. !

.. بدلا من أن يركب الأوتوبيس سار على قدميه ، ومر أمام مسجد « السلطان أبو العلا » وتحركت شفتاه بشيء ، وبدلا من أن يمشي على الرصيف . اختار أن يمشي في الشارع ، وراحت السيارات تطارده بالكلاكسات . والشتائم تنهال عليه من نوافذ السيارات ، ولكنه مشغول عن هذا كله بشيء في داخله : كيف حدث ما حدث في البيت ؟ هل هان أمره لهذه الدرجة على زوجته ؟ لقد شتمته أمام أولاده .. لهذه الدرجة !

وما تزال السيارات تطارده كأنه يريد من الكلاكسات أن توقظه . أن تنتشله . فهو غارق في هدومه . في نصف هدومه . لقد حدث ماحدث ولن يعود إلى البيت . وهو يشعر بالأمان في الشارع الآن ، فهو ليس بين جدران أربعة . لا أحد يكلمه . لا أحد يشتمه . لا أولاد ينظرون إليه بإشفاق أو باستنكار أو باحتقار . لا أحد ينظر إليه من المارة . إنه بالنسبة لكل المارة : لا أحد : لا هو أب ولا زوج ، ولا هو إنسان . كان شيئاً فأصبح فجأة لا شيء . ليس في الشارع أبواب ولا نوافذ ولا جدران . إنه ليس في حاجة إلى أن يقفل الباب برفق ، حتى لا يسمعه أحد . إنه ليس في حاجة إلى أن يتظاهر بالمرح وهو حزين . إنه حزين حزين . وفي استطاعته أن يبدو حزيناً ، وأن يكشر وأن يبكي ، فقد يكون لبكائه أي سبب . فلن يسأله أحد عن شيء . فلا أحد في الشارع ، فالناس ينطلقون كالسيارات . كل سيارة في حالها ، وكل إنسان في حاله ، وهو ككل الناس وككل السيارات

فى حاله . وفى استطاعته أن يضحك ، وأن يرقص وأن يتظاهر بأنه سكران كما يعجبه . ففى الشارع قد اكتسب حريته ، واسترد كرامته .

وعند إشارة المرور رأى أناساً يتشاجرون . لقد امتدت الأيدى من السيارات المجاورة . إن أحداً يشتم أحداً وفى سيارة .. ! وفى إحدى السيارات أطفال يسمعون هذه الشتائم . لقد كان ذلك اكتشافاً عجيباً ! فلا فرق بين البيوت والسيارات ؛ وربما كانت السيارات بيوتاً على عجل ، أكثر حركة ، وأكثر انتقالا من شارع إلى شارع .

وجلس على أحد المقاهى ، واتجه إلى مراقبة السيارات . ووقفت أمامه سيارة كبيرة لامعة . ولابد أنها دافئة من الداخل ، فالدفء أحمر على خدود من فيها . وانفتح شباك السيارة لتضع إحدى السيدات يدها على خدها مفاجأة : سيدة تركب سيارة فخمة وتضع يدها على خدها كما يفعل هو تماماً !

فعاد إلى البيت ، وانفتح الباب ، ودخل ، وجلس ويده على خده وراح يغنى . فهذه إذن حال الدنيا ومادامت هناك خدود فسوف تستند إلى الأيدى . وسوف تكون هناك نوافذ ينظر منها الناس .. نوافذ فى سيارة أو فى البيت .. ولا يهم أبداً أن يهون أمرك على الناس فى البيت أو فى الشارع أو فى السيارة . لأنه من الطبيعى أن يهون أمرك على أقرب الناس إليك .. فكل نبى فى بيته مهان .. ولا تنس أنك لست نبياً !

الراحة ضرورة

هناك نوعان من التعب : تعب عضلى وتعب نفسى . والتعب العضلى يصيب الذين يعملون بأيديهم. والاسترخاء والنوم يؤدى إلى الراحة والانتعاش يجعلنا قادرين على مواصلة العمل من جديد . وفى بداية الثورة الصناعية فى أوربا وجدنا العمال يشتغلون ساعات طويلة ، فلم يكن قانون تحديد ساعات العمل قد صدر . ولذلك ظهرت عليهم الشيخوخة المبكرة ، تماماً كما حدث للعمال فى اليابان والصين فى هذا القرن ، وكما يحدث فى كل الدول النامية التى ترهق العمال ولا تحدد لهم ساعات عمل وساعات راحة !

أما التعب النفسى فهو يصيب كل المثقفين ورجال الأعمال . وأهم أسباب التعب النفسى هو القلق والخوف وعدم الاطمئنان . فالموظف يخاف أن يفوته الأوتوبيس، ويخاف أن يفصله رئيسه فى العمل ويخاف من المرض ، ويخاف من الإفلاس . وهو قلق على أولاده وعلى نتائج الامتحانات ، وعلى موعد الترقية .

والراحة من هذه المتاعب النفسية صعبة . فالنوم ليس سهلا . والمتعبون نفسياً ينامون والمتاعب إلى جوارهم فى نفس الفراش . ولذلك لابد من مناقشة هذه المتاعب وتصفية جيوبها أولا بأول . والنظر إليها واحدة واحدة .

وأهم من ذلك أن نرغم أنفسنا على الراحة . لابد أن نستريح يوماً فى الأسبوع . أسبوعاً فى السنة . لابد . وحق الراحة هو أهم الحقوق التى اكتسبها العامل فى العصر الحديث . وقد ثبت بالأرقام أن العمال الذين

لا يستريحون يقل إنتاجهم ، والذين يعرفون الراحة أكثر إنتاجاً .

وبعض الناس يتصور أنه إذا غاب عن عمله اضطرب الكون واختل النظام ، لأنه إنسان ضرورى ، وأنه لا غنى عنه ولذلك يجب ألا يغيب عن مكان عمله أبداً مهما كانت النتيجة ! !

والذى يؤكد أنه تعبان جداً . وأنه فى حاجة إلى علاج نفسى ، هو هذه التصورات الوهمية . فلا أحد لا يمكن الاستغناء عنه . فسوف يمضى كل شىء كعادته .

وسوف تبقى النجوم لامعة فى السماء ، وسوف تبقى المسافة بين الأرض والشمس ٩٣ مليون ميل كما كانت من ملايين السنين . فلن يحدث شىء فى الدنيا فى أثناء غيابك !

وإذا كانت هذه فكرتك عن نفسك فأنت ولاشك تهرب من شىء يضايقك ، وتريد أن تختمى فى العمل . ومادمت هارباً فلا يمكن أن يكون عملك منتجاً . فأنت كالذى يختفى فى حقل قطن دون أن يزرع أو يجنى .. وإذا كان هذا رأيك فى أهمية وجودك وعملك فأنت فى حاجة إلى إجازة : إلى راحة نفسية .

وعندما تعود من الإجازة ستجد الدنيا أحسن مما تركتها .

وأجمل . لماذا ؟ لأن أعصابك قد استراحت !

نوع آخر من الغيرة ..

بالتدريج تنتشر رائحة كريهة فى جو الأسرة .. إنها تشبه رائحة البوتاجاز .. عود كبريت واحد ينسف البيت ومن فى البيت !

هذه الرائحة اسمها الغيرة ..

وهذه الغيرة من نوع خاص . فالزوج يشعر أنه هو وحده الذى يعمل ، والذى يتعب ، وأنه ثور يدور فى ساقية ، وأنه كالنهر الذى يصبّ فى البحر محاولا أن يجعل ماء البحر حلواً ، ولكن دون فائدة . فى حين تجلس الزوجة فى البيت لا تقدر معنى التعب ، ولا معنى الفلوس ، ولا معنى الدوخة التى يتحرك فيها الثور. ثم إن هذه الزوجة وأولادها متماسكون معاً . إنهم مجتمع مترابط .. لهم مصالح مشتركة ، مع أن هذه المصالح المشتركة ليس لها إلا معنى واحد : هو الاستفادة من مجهود هذا الإنسان الدائر فى فلك التعب والشقاء ..

أما الزوجة فلها رأى آخر ..

فهى ترى أنها محبوسة فى البيت .. بين أربعة جدران .. وأن الزواج ليس إلا نوعاً من السجن الاختيارى ، ثم هو بعد ذلك سجن انفرادى ، ثم هو بعد ذلك سجن مع الأشغال الشاقة .. أما الزوج فهو حر . إنه يروح ويجىء ويقابل ألوف الناس ، ويضحك وحياته مملوءة بأشياء جديدة .. وهذا الجديد فى حياته هو الذى يجعله فى صحة جيدة . فإذا جاء إلى البيت اتجه إلى المائدة ليأكل . وبعد ذلك ينام بعمق . فالبيت هو مكان لراحته .. ومكان لشقاء الزوجة . والزوج لأنه شبعان من التغيير والتبديل لا يريد أن يخرج ولا أن يذهب إلى

السينما ولا أن يشم شوية هواء ، لأنه بالفعل يعيش فى سينما .. وحياته كلها خروج ، والهواء يدخل من أى باب ومن أى شباك !

وعندما يصعب التوفيق بين وجهتى النظر ، فإن رائحة كريهة أخرى تتسرب إلى جو البيت . هذه الرائحة هى : إحساس الزوجين بأن التفاهم بينهما صعب .. وبأن الرجل والمرأة ليسا من أصل واحد ، وأن المرأة ليست بنت حواء ، وإنما بنات حواء انقرضن من ألوف السنين . فجاءت أنثى حيوان آخر وانضمت إلى الرجل واندمجت فيه حتى تشابهت أعضاؤها وحركاتها وأفكارها معه .. !

وإذا وصل الزوجان إلى الاقتناع بهذا الرأى الأخير فلا داعى لأعواد الكبريت .. لأن هذه الحياة تكون قد نسفت مع أول أنبوبة بوتاجاز اسمها : الغيرة من وظيفة الرجل العامل ومن وظيفة الزوجة ست البيت !

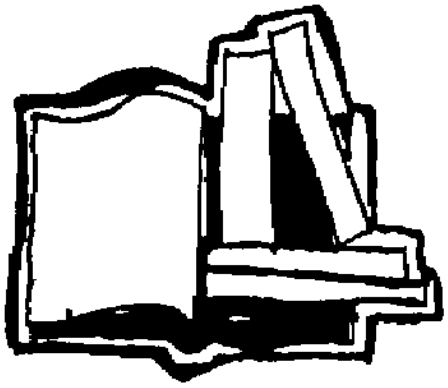

صعوبة البساطة

أغنية للمطربة صباح تمجد : البساطة .. البساطة .. يا عيني ع البساطة ...وتقترح نموذجاً لهذه البساطة : أن يأكل المحبون الجبنة والزيتون والبطاطة . ممكن طبعاً . ولكن كم يوماً يستطيع الحب أن يعيش على الجبنة والزيتون ؟ .. من المؤكد أن الحب يستطيع أن يعيش على هذه الوجبة البسيطة طوال مدة الأغنية فقط !

فليس أصعب من البساطة فى كل شىء . فى الأكل والشرب واللبس وليس أصعب من أن يأخذ الإنسان الأمور كلها ببساطة . وأخذ الأمر ببساطة صفة من صفات الحكماء والفلاسفة ، وعدد هؤلاء قليلون جداً . وليس البسيط هو الذى يأكل الجبنة والزيتون ، ولا يستطيع أن يأكل شيئاً آخر . ولكن البسيط هو الذى يستطيع أن يأكل أطعمة أفخم ، ثم يفضل الجبنة والزيتون !

وقد حاول رجل واحد فى كل التاريخ أن يكون بسيطاً جداً ، فكان أضحوكة البشرية ، ذلك الرجل يونانى اسمه « ديوجين» فقد ارتدى ثوباً واحداً على اللحم ، وكان الثوب ممزقاً . وكان يأكل إلى جوار الحائط ، ولم يجد فارقاً كبيراً بين الناس والكلاب . ولما عاشر الكلاب . ازداد احتقاراً للإنسان . وكان ينام فى صناديق الزبالة ، تماماً كما عاش الإنسان الأول قبل اختراع البيوت والقصور. وراح يتأمل الإنسان من بعيد ، فلم يجد فارقاً كبيراً بين إنسان وحيوان . بل إنه لم يجد معنى للإنسانية ، ولذلك أمسك مصباحاً مضيئاً وراح يمشى به نهاراً يبحث عن إنسان ..

ولما سمع الإسكندر الأكبر قصة هذا الرجل البسيط ذهب لزيارته فوجده نائماً فى الشمس ، واقترب منه الإسكندر ، وأشفق عليه ، وقال له : هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟ فقال الرجل البسيط : نعم ابعد عنى .. فأنت تحرمنى أشعة الشمس . . ومات الإسكندر وهذا الرجل البسيط فى يوم واحد.. ودفنا — طبعاً — فى الأرض !

ولكن الميزة الوحيدة للرجل البسيط أنه لا يملك إلا القليل ، ولا يحتاج إلا القليل . وكلما نقصت حاجات الإنسان زادت حريته .. ولذلك فالذى لا يملك شيئاً ، لا يملكه شيء . ومن هنا كان الشحاذ أكثر الناس حرية ، فهو لا يملك شيئاً ، ولذلك لا يخاف على شيء ولا يخاف من أحد ، ولا يلومه الناس على أى شيء يفعله ، لأنه ليس شيئاً . . مادام لا يملك شيئاً .. فالخوف هو الذى يجعل صاحب الفلوس يتحول خفيراً على فلوسه ، وصاحب العمارة يتحول بواباً لعمارته .. فالذى أملكه يملكنى ..

ومن خمسين قرناً من الزمان عثروا على حكمة بليغة على آثار مدينة سومر فى جنوب العراق . الحكمة تقول : أنت تملك القمح ، أنت رجل شبعان .. أنت تملك الفضة ، أنت رجل غنى .. أنت لا تملك شيئاً ، أنت تستطيع أنت تنام هادئاً !

فما أصعب هذه البساطة ! .. وما أسهل أن نغنيها وأن نرددها ! .. ولكن ما أبعد أن يحققها الإنسان !

وما أكذب صباح وهى تغنيها وقد ارتدت فستاناً بألف جنيه ، ووضعت خاتماً من الماس بعشرين ألفاً !

للمسرح قداسة

عندما نذهب إلى المسرح نحمل فى نفوسنا احتراماً جاهزاً لما سوف نراه.. إن هذا الاحترام موجود دائماً كالبطاقة الشخصية وأجرة المواصلات. وكذلك نذهب إلى المسرح ونحن على استعداد لأن نقتنع ونرضى ونصفق ، لأن المسرح يعرض الناس على الناس .. يعرضنا على أنفسنا . يناقشنا .. يحاورنا .. فهو يقوم بعملية تشريح لفضائلنا ورذائلنا . ويلقى الأضواء عليها .. أمامنا .. وعلناً !

ونحن نحترم المسرح الذى يحترمنا ، بل نحترم المسرح الذى يحترمنا أكثر . ولكن المسرح الذى يؤكد من اللحظة الأولى للمتفرج أنه مغفل ، أى أنه يقبل أى كلام يقال له ، فهو مسرح يسقط فى نظر المتفرج ؛ ولايزال المتفرج يسقط من قدر المسرح حتى يدفنه عند قدميه قبل أن ينزل الستار الختامى !

ولكن المتفرج أيضاً لا يحب من المسرح أن يتحول إلى كباريه : كلام عريان وألفاظ نابية إن هذا يصدم المتفرج ، وينشل منه الاحترام الذى ادخره وجاء به إلى المسرح .

والمتفرج لا يحب أن يكون المسرح زعيقاً وشخطاً . لا يحب المسرح الذى يعمق الشعور بالندم عند المتفرج كما يفعل بعض رجال الدين . فالمتفرج يشعر بشىء من القداسة الدينية للمسرح . ولكن كم من رجال الدين استطاعوا أن يصدوا الناس عن الدين ، وذلك بسبب أسلوبهم التعذيبى فى النصح والإرشاد !

والمتفرج لا يحب من المسرح أن يجعله يحس كأنه جالس فى البيت فالكلام صغير . والخناقات مجنونة . والمعنى لا وجود له .. وإنما المتفرج يريد من المسرح ومن المسرحيات ومن المؤلفين والممثلين أن يجعلوه يحس أنه فى مكان محترم فيه يرتاح العقل وتسر النفس ، ويجعل للحياة بعداً وأملا .

وفى لندن الآن مسرحية تظهر فيها الممثلات عاريات تماماً .. وقد صدمت المتفرجين . لا لأن ظهور امرأة عارية يصدم الشعور العام ، ولكن لأنه من الصعب أن تفتح أذنك على ما تقوله امرأة عارية جميلة .. فأمام الجمال العريان لا نفتح إلا عيوننا وأذرعنا فقط ..

..ولذلك فمهما قالت العرايا فلن يجدن أحداً يسمع .. فكأن الممثلات قد ظهرن ليشغلن الناس عن المسرحية التى جاء الناس من أجلها .. إنها إذن معادلة صعبة . بين : الكلام الواضح والجسم الفاضح !

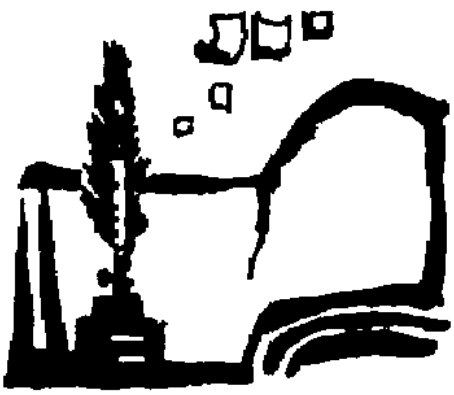

العظمة
ليست فهلوة ! !

عيب رئيسى فى الكتب التى تصدر عن حياة العظماء أنها تجعل العظمة شيئاً مستحيلا . فهذه الكتب تصور العظماء على أنهم مجموعة من الشواذ على حافة الجنون ، وظروفهم كلها مستحيلة ، وصعوباتهم خارقة ، ولهم قوى شيطانية تحطم الأسوار والجبال وتشق البحار .. إلخ .

وليس معنى ذلك أن العظماء ليست لهم صفات غير عادية ، أو ليسوا إلى حدما شواذاً . ولكن هؤلاء العظماء مع ذلك ، أناس عاديون .

وقد دلت التجارب التى أجريت فى معاهد الدراسات النفسية فى أوربا وأمريكا على أن العظماء أناس متوسطو الذكاء ، ومحبون للعزلة ، ولهم أساليب غريبة فى الحياة ، فهم غير اجتماعيين ، لأنهم ميالون إلى العزلة ، ليفكروا ويبتكروا ، وهذه العزلة الطويلة جعلتهم ينسحبون من الحياة الاجتماعية ، وجعلت الحياة الاجتماعية غير قادرة على أن تفرض عليهم طرقاً خاصة من التفاهم والتعامل بين الناس ..

ولكن من المؤكد أن العظماء جميعاً يشتركون فى صفة واحدة وهى القدرة على العمل ، والصبر ، فلا يوجد عظيم واحد ليس من صفاته العمل الشاق والاحتمال ، احتمال الحياة ، واحتمال العذاب من أجل مبادئه السياسية أو الفلسفية أو العقلية ..

وقد لوحظ أن الأطفال الأذكياء جداً ، كسالى ، ويعتمدون على حسن إدراكهم ، ويثقون فى قدراتهم أكثر مما يجب . أما متوسطو

الذكاء فهم الذين لا يثقون فى أنفسهم . وإنما يثقون فى التجربة . وكلما أثبتت الأيام صحة آرائهم أو تجاربهم زاد رصيدهم من الثقة بالنفس ..

إن الذى يستعرض حياة الموسيقار بيتهوفن يجد أنه كان كالذى يقطع الصخور ويشق الأنفاق . فقد كانت حالته العصبية عنيفة ، وكانت حالته العضلية مؤلمة. ولم يكن الإبداع الفنى عنده شيئاً كالبرق يلمع فى ثانية ، ويسجله على الورقة فى دقيقة ، ويقدمه للناس بعد ساعة ، وإنما كان عملا صعباً ، واستمراراً مضنياً . .

إننا فى كل ما نكتبه عن العظماء يجب أن نعلم أن حياتهم كانت شاقة ، وأنهم تغلبوا عليها ، وتفوقوا على غيرهم .. ولكنهم أولا وآخراً بشر مثلنا .. وأن العظمة والامتياز والتفوق كلها صفات ممكنة لكل من يعمل ويتعب ويصبر ، فالعظمة بالعمل وليست بالفهلوة !

« خمسة وخميسة »

ما معنى أن يركب الإنسان سيارة كاديلاك سنة ١٩٧٠ ويعلق فى سقفها « خمسة وخميسة » أو « حدوة » أو « جزمة صغيرة » ؟ معناه أن السيارة هى أحدث ما ابتكره العقل الإنسانى ، ولكن راكب السيارة مايزال يحتفظ بعقلية مؤمنة بالحظ والنحس والتفاؤل والتشاؤم . . أى مؤمنة بشىء غير علمى .. وأن هذه « المعلقات » سوف تنقذ السيارة من الحوادث ، وسوف تنقذ السائق من النار إذا احترقت السيارة كلها ، ولا ضرر طبعاً من هذه المعلقات ، ولا خطر من وضعها فى السيارة أو الطيارة ، ولكن الخطر هو الإيمان الشديد .. الإيمان غير المعقول وغير المنطق بهذه المعلقات التى تمنع من الدمار .

وأخطر من هذا أن تصبح «للمعلقات» قوة الحقائق العلمية المؤكدة ..

ولكن هناك فارقاً بين أن يتفاءل الإنسان بهذه المعلقات ، وبين أن يؤمن إيماناً قاطعاً بأنها هى التى سوف تنقذه بالفعل . وقد حدث أن ركب أحد رواد الفضاء الأمريكيين سفينته وقد لف حول عنقه منديلا أهدته إليه زوجته ، وصعد إلى الفضاء الخارجى ودار وخرج من السفينة ثم عاد إليها مسجلا انتصاراً علمياً عظيما . هذا الرائد نفسه قد مات فى حادث سيارة . ويقال إنه قد نسى المنديل الذى أهدته إليه زوجته !

والمنديل من المستحيل أن ينقذه إذا كان جاهلا بقيادة السفينة ، ومن المستحيل أن ينقذه إذا كان أعلم العلماء بقيادة السيارات فاصطدمت سيارته بهذا العنف بسيارة أخرى !!

فليس التفاؤل بالمنديل ، ولكن الإيمان بالقدرة الخارقة للمنديل أو بأى شيء آخر ، بهذا التواكل على المنديل أو « الخمسة وخميسة » !

إن هذه « المعلقات » لا تهم أبداً بشرط أن نكون على علم وتدريب بالسيارة والطيارة . وكل من يقول : « خليها على الله » يجب أن يكون قد تعلم واستعد .. وبعد ذلك يتركها لله !